العدول

في السياق القرآني

الدكتور حسن حميد فياض

مدرس في

جامعة الكوفة ـ كلية التربية للبنات

قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

البحث في كتاب الله العزيز له مذاق خاص؛ ذاك أن للباحث فيه –مع صدق النية– أجرا كبيرا بوصفه أحد العاملين في خدمة القرآن الكريم، فضلا عما يقف عليه من الدقة في ألفاظه، والتناسق في أصواته، والجمال في أسلوبه، وما يحصل عليه من التأمل في عميق دلالاته، وبعد مراميه، وسلامة أهدافه.

وهو بعد كتاب بكر –على كثرة ما كتب فيه وعنه– وسيظل جديدا أمام البحث الموضوعي ما دام الباحث ينعم النظر في آياته، ويديم التأمل في معانيه.

و((العدول في السياق القرآني)) بحث أحسبه متجددا فهو ثمرة من ثمار الجهد العلمي للمتأمل الواعي في كثير من آيات القران الكريم التي قد تظهر للقارئ العابر أنها أقحمت في سياقها إقحاما، وخرجت عما قبلها وما بعدها من الآيات، ومحاولة البحث ترى أن هذه الآيات جاءت في مكانها الثابت المناسب، وهي مستقرة في سياقها؛ لوجود رابط عام يربطها بما قبلها وبما بعدها من الآيات أو أجزاء الآيات.

وكانت أهم الصعوبات التي واجهت البحث خلو معظم التفاسير من تناول هذه الظاهرة المتكررة في القرآن؛ لأن التفاسير تقوم على تجزئة الآيات، بل الآية الواحدة للوقوف على دلالاتها، واستظهار الأحكام منها، وقد أثار استغرابي أن صاحب (الكشاف) سار على المنهج نفسه الذي سارت عليه التفاسير الأخرى على الرغم من تمرسه البلاغي في التفسير، بيد أني وقفت على لفتات ذكية في تفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب مسّت بعض الآيات التي مثلت هذه الظاهرة مسّاً خفيفا.

وفي ضوء ما تقدم كان لا بد للبحث أن يؤصل مبدأ(العدول في السياق) قبل أن يطبقه على السياق القرآني، وهو ما يسبق قضية الموضوع، ثم تقسمت مباحثه على أربع آيات، تمثل العدول في اثنتين منها بشكل واضح، فكان الوقوف عندهما وتجلية العدول في سياقهما مهمة المبحثين الأول والثاني.

أما الآيتان الأخريان فقد كان العدول فيهما واضحا في معناهما وتركيبهما، بيد أنهما كانا عرضة للنقاش والجدل بحسب ما جاء في التفاسير، فكانت مهمة المبحثين الثالث والرابع الوقوف عندهما وتبيان العدول في سياقهما على وفق المنهج المتبع في الآيتين اللتين سبقتاهما؛ ليكون المنهج المتبع في الآيات جميعا منهجا واحدا، ثم كانت الخاتمة استجلاء لأهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

العدول والسياق في اللغة والاصطلاح

١. العدول لغة واصطلاحا:

جاء في كتاب العين:((عِدْل الشيء: نظيره ... والعَدْل أن تَعْدِل الشيء عن وجهه فتميله ... وعَدَلْتُ الشيء أقمته حتى اعتدل ... وعدلت الدابة إلى كذا: أي: عطفتها فانعدلت.

والعَدْل: الطريق ... والانعدال: الانعراج))[١].

وفي المحكم:((عَدَلَ عن الشيء يَعْدِل عَدْلاً وعُدولاً: حادَ ... وعَدَلَ إليه عدولاً: رجع ... وعَدَلَ الطريقُ: مال ... وانعدل وعادل: اعوج))[٢].

وفي معجم مقاييس اللغة:((عدل: العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنهما متقابلان كالمتضادين: أحدهما يدل على استواء، والآخر يدل على اعوجاج))[٣].

وذكر في اللسان:((عَدَل الطريق: مال ... وفي الحديث: لا تُعْدَل سارحتكم أي لا تصرف ماشيتكم وتُمال عن المرعى))[٤].

ومما تقدم يظهر أن العدول في اللغة يدل – فيما يدل عليه – على حياد الشيء عن وجهته وإمالته عنها.

أما في الاصطلاح فقد ذكر ابن الأثير(ت 360هـ)((أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارها، وفتش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما، وأغمضها طريقا.))[٥].

ومن خلال اكتشاف أصول هذا المصطلح لدى ابن الأثير يتجلى عمق ما وصل إليه البحث في استكناه خصوصية المصطلح بالانتقال من معنى إلى معنى، لا يتوصل إليه إلا المبرز في معرفة البلاغة والفصاحة، والغائص في أعماق أسرارهما، والمنقب عن ذخائرهما باعتبار العدول من أشكل ضروب علم البيان، لأنه دقيق الفهم، غامض الطريق.

وعلى هذا فالعدول مصطلح بلاغي من وجه، ومصطلح دلالي من وجه آخر، فهو معنيّ بالبيان العربي في لفتاته البلاغية، وهو معنيّ بدلالة الألفاظ في صيغ الاستعمال.

وفي ضوء هذا الفهم يبدو للبحث أن العدول في معناه الاصطلاحي هو الانتقال بالألفاظ في النص من سياقها المألوف الاعتيادي إلى سياق جديد خلاف الظاهر، مما يثير التساؤل، ويلفت النظر والانتباه.

وفي ظل هذا الاصطلاح سينصب حديثنا عن العدول بعامة تمهيدا، وعن العدول القرآني بخاصة استقراء.

٢. السياق لغة واصطلاحا:

يقول ابن فارس في مقاييسه:((سوق: السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْوُ الشيء. يقال ساقه يسوقه سوقا، والسَّيّقة: ما استيق من الدواب ... والسوق مشتقة من هذا، لما يُساق إليها من كل شيء.))[٦].

وجاء في لسان العرب:((ساق الإبل وغيرها سَوْقاً وسياقاً ... وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت ... والمساوقة: المُتابعة كأن بعضها يسوق بعضا))[٧].

وفي العين:((يقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد، أي بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية))[٨]. وفي المحكم:((بنى القوم بيوتهم على ساق واحد))[٩].

وقد أورد الزمخشري في مجاز أساسه:((تساوقت الإبل: تتابعت. وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و((إليك يُساق الحديث)). وهذا الكلام مَساقة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سَوْقِه: على سَردِهِ))[١٠].

ومما تقدم نخلص إلى أن السياق في اللغة هو: تتابع الأشياء بعضها إثر بعض بنفسها، أو بسبب خارجي.

أما في الاصطلاح فيحتاج إلى تتبع بعض ما قاله علماء البلاغة قديما وحديثا، وأبدأ بعبد القاهر الجرجاني(ت 471هـ) في حديثه عن نظم الكلم، فهو يرى أنه ((نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق)) [١١]، ومن هنا يظهر ((أن ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل))[١٢].

فالنظم عند عبد القاهر الجرجاني عملية عقلية تظهر آثارها بتنسيق الكلمات في تتابع مفضٍ إلى معنى بيّنٍ قصده المتكلم. إن هذا التتابع يشمل العبارة والجملة والنص، وهو معني بالسياق في علاقة الألفاظ بالمعاني، أو المعاني بالألفاظ.

ويرى الشاطبي(ت 790هـ) أن ((المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل ... ولا محيص للمتفهم من رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره))[١٣].

وما أبداه الشاطبي –فيما يرى البحث– دقيق جدا في التوصل إلى الفهم الاصطلاحي للسياق؛ ذلك أن الأحوال والأوقات والنوازل عناصر مهمة يضيفها الشاطبي لفهم النص، وهي تعبر عن تداخل الأحوال الاجتماعية والعوامل الزمنية والقضايا العامة في تكوين دلالات النص، وفهم المراد منه [١٤]. وبذلك يكون الشاطبي –على ما يظهر– مؤصلا لمصطلح السياق.

والطريف في الأمر أن يؤكد هذا الكلام في مستوى أوسع مما تقدم العالم البريطاني (جون لاينز) بقوله:((إن اللغوي حين يكون نظرية سياق مقنعة، يجب أن يعتمد في تفسير الوحدات الكلامية على نظريات العلوم الاجتماعية ونتائجها بصورة عامة ... وتشمل هذه العلوم ... علم النفس وعلم المجتمعات الإنسانية (الانثربولوجيا) وعلم الاجتماع))[١٥].

ويرى في حديثه عن تشكل السياق أن((معنى أي تعبير ما هو إلا مجموع علاقات المعنى القائمة بينه وبين التعابير الأخرى))[١٦].

وإذا تركنا البلاغيين والدلاليين في تحديد المصطلح إلى الأسلوبيين المعاصرين والسياقيين في تحديد السياق فيرون أنه كما يشمل الجمل الواردة في تتابع معين ينبغي أن يشمل القطعة كلها والكتاب كله[١٧].

وفي ضوء تحديد علمائنا القدامى لمصطلح السياق وتنظير المحدثين يتبين لنا أن السياق في الاصطلاح: عبارة عن شبكة العلاقات اللغوية والبيانية والنفسية القائمة بين الألفاظ والمعاني، أو العبارات والجمل في إطار نص ما.

وهذا التعريف – فيما يرى أستاذنا الدكتور الصغير– ينطبق من وجه على تعريف الصورة، ولكنه أخص منها[١٨].

إن السياق في كثير من النصوص يأتي بشكل مألوف للمتلقي ولا يصطدم بما هو غير متوقع له، فإذا حصل الاصطدام عد من أسباب التقوية الأسلوبية التي يستعملها الأديب في أسلوبه، وهو ما يصطلح عليه (ريفاتير) بـ(السياق

الأسلوبي)[١٩]، ويعرفه بأنه ((نموذج لساني مقطوع بواسطة عنصر غير متوقع)) [٢٠]، غير أن هذا القطع لا يكون عاملا مفككا للنص، وإنما هو منبه أسلوبي تكمن قيمته في نسق العلاقات الذي يعمل على إقامته مع بقية عناصر النص لتكوين المعنى المراد[٢١].

وتأسيسا على ذلك يكون معنى (العدول في السياق) هو خروج فجائي يجدد زخما دلاليا في التنقل في الخطاب من أصل إلى أصل. أو هو ظهور عنصر غير متوقع من العبارات والجمل ضمن شبكة العلاقات اللغوية والبيانية والنفسية المرتبطة في إطار نص ما.

إن هذا العدول لا يعني أن يكون النص المعدول به مفارقا للسياق العام الذي جاء به، وإنما هو منبه بلاغي يستدعي التأني والتأمل وإعمال الفكر لمعرفة الهدف منه، وظاهرة أسلوبية تتصل في النص، وتنفصل في الأداء البياني، فهو مرتبط به ارتباطا وثيقا في عالم الدلالة إذ ليس من الفن القولي بأفضل معاييره الفنية أن يأتي كلام أجنبي في وسط سياق لا يمت له بصلة، وبخاصة إذا كان هذا السياق في القرآن الكريم الذي هو((لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ))[٢٢]، وذلك ما يحاول كشفه هذا البحث بعون الله تعالى.

مظاهر العدول في السياق:

- 1 -

في قوله تعالى:

((وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ))[٢٣].

الآية بمدلولها تتحدث عن الدعاء بل عن إجابة الله –جل شانه – للداعي وقربه منه، وهو غير الحديث عن الصيام الوارد في الآيات السابقة لها والآية التي

تلتها، فآيات الصوم تبدأ بالآية 183 وتنتهي بالآية 187، وآية الدعاء تدخل في سياق هذه الآيات.

وقد جاءت هذه الآية لتشطر الحديث عن الصيام في الآيات المذكورة شطرين، تحدث أولهما – وهو المترتب قبل الآية –عن فرض الصيام على المسلمين وعلى من قبلهم من الأمم السابقة، وتحدث عمن يجب عليه الصيام والشهر الذي يجب فيه وتحديده بشهر رمضان ومكانة هذا الشهر بين شهور السنة بوصفه الشهر الذي نزل فيه القرآن، وذكرت بعض أحكامه.

أما الشطر الثاني– وقد جاء في آية بعد آية الدعاء– فقد تناول الحديث عن بعض ما يباح للصائم بعد إفطاره من مقاربة النساء والأكل والشرب، وأوضح أن وقت الصيام يبدأ بالفجر وينتهي بالليل.

ويبدو واضحا أن آية الدعاء معدول بها عن سياق آيات الصيام قبلها وبعدها.

سبب العدول:

إن سبب العدول في سياق الآية الكريمة عما قبلها وبعدها من الآيات هو تنبيه القارئ للقرآن الكريم والسامع له إلى التوقف، وحمله على التدبر والتفكر فيها، فإن ورود معنى يبدو للوهلة الأولى خارجا عن سياقه يدعو إلى الالتفات والتنبه لمعرفة المراد منه ولاسيما أنه صادر عن حكيم خبير.

هدف العدول:

يهدف العدول إلى التنبه إلى الدعاء والاهتمام به والإكثار منه خاصة وأن المقصود بالدعاء قريب مجيب، وهو تعليم للمؤمنين وتأديب لهم وتثبيت للإيمان في قلوبهم، ذلك أن الداعي لا يتوجه إلى أحد بدعائه ما لم يعلم أنه قادر على إجابة دعائه فهو يتأمل منه ذلك. فإذا كان المقصود بالدعاء هو القادر على كل شيء والمعطي الذي لا بخل في ساحته فعندئذ يحصل عند الداعي توجه إليه وانقطاع له وترك ما سواه من الأسباب، وهو نوع عال من تهذيب النفس والسير بها إلى الرشد.

طبيعة العدول:

تتضح طبيعة العدول من خلال المعنى الظاهر، فالقارئ يجد للوهلة الأولى فارقا بين الحديث عن الصيام والحديث عن الدعاء، فكل منهما له شروطه وأحكامه وغاياته.

الجامع بين السياقين:

- في الشكل:

١. يبدأ سياق آية الدعاء بأسلوب الشرط مستعملا الأداة (إذا) وقد ورد أسلوب الشرط في الآية التي سبقتها مرتين مستعملا اسم الشرط (من)، وقد اقترن جواب الشرط في الحالات الثلاثة بالفاء.

٢. جاء أسلوب الأمر بالفعل المضارع المتصل بـ(لام الأمر) بعد الشرط في آية الدعاء في قوله تعالى :((فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي))، وقد ورد الأمر نفسه في الآية التي قبلها، إذ جاء الأمر بعد الشرط في قوله تعالى: ((فَلْيَصُمْهُ)).

٣. ختمت آية الدعاء بأسلوب التمني الخارج بلاغيا إلى الحث على الرشد في قوله تعالى:((لعلهم يرشدون))، وختمت الآية التي قبلها بالتمني الخارج بلاغيا إلى الحث على الشكر في قوله تعالى:((ولعلكم تشكرون)).

- في المضمون:

الصوم عبادة مهمة تظهر بعض جوانب أهميتها من كونها تهذب النفس وتكفها عن شهواتها، فإمساك الإنسان عن الطعام والشراب أمر فيه حرج وصعوبة،فإذا أضيف إليه امتناعه عن كثير مما أحل الله له إكمالا لهذه الشعيرة وتربية للنفس الطامعة الطامحة كانت الصعوبة أكبر، وهذا ما يجعل عائدة أجره على المؤمن كبيرا جدا كما ورد في كثير من الأحاديث الشريفة.

والدعاء هو الآخر عبادة مهمة، بل إنه وصف في لسان بعض الروايات بـ(مخ العبادة)[٢٤]، وهو أيضا –كما مر قبل قليل– مهذب للنفس لما فيه من التوجه إلى الباري –جل شأنه– بالسؤال والطلبة والانقطاع عما سواه.

ومن هنا يتبين أن الجامع بين السياقين في المضمون هو أن كلا من الصوم والدعاء عبادة، فضلا عن أن الدعاء مرغب فيه في شهر الصيام ومدعو إليه شديدا، ((والصائم اقرب الدعاة استجابة ... ومن ثم جاء ذكر الدعاء في ثنايا الحديث عن الصيام))[٢٥] فالسياق في إطاره العام واحد وإن بدا في ظاهره بخلاف ذلك.

ويتضح مما تقدم أن العدول في سياق هذه الآية – كما هو شأنه في غيرها من الآيات – كانت له أسبابه الموجبة له، وأهدافه الإيحائية فيه، ودلالته المستخرجة منه.

– 2 –

وفي قوله تعالى:

((حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ))[٢٦].

في هذه الفقرة من البحث الآيتان الكريمتان تحثان على المحافظة على الصلاة كما هو واضح من منطوقهما، وقد جاءتا في أخريات سياق طويل يتحدث عن النساء وبعض شؤونهن وأحكامهن والطلاق والرضاع، وهو يبدأ بالآية 222 وينتهي بالآية 242.وواضح جدا أن الناظر إلى السياقين في قراءة أولى لا يجد

بينهما ترابطا ولا جامعا، فما علاقة المحافظة على الصلاة بالحديث عن النساء والطلاق والرضاعِ ؟

وأحاول هنا أن أتبين الجامع بينهما على وفق المنهج الذي اتبعته في الآية المباركة السابقة.

سبب العدول:

لا ريب في أن مجيء آيتين مكتملتين في معناهما وواضحتين في أبعادهما وهما بعيدتان عن سياق ما قبلهما وما بعدهما يدعو القارئ المتأمل إلى التدبر والتفكر فيهما بل في السياق بأسره في محاولة جادة لمعرفة أبعاد العدول بهما عن السياق العام والغاية منه.

الهدف من العدول:

لقد جاءت آيات كثيرة وتوالت أحاديث عديدة تدعو إلى إقامة الصلاة وتنهى عن التفريط بها، ولعل من أكثر الآيات شيوعا وأعظمها انتشارا آية المحافظة السابقة، فهي تحث على المحافظة على الصلوات جميعا ،وتفرد إحداهن لشديد أهمية المحافظة عليها وقتا وحضورا، وقد اختلف في المراد من الصلاة الوسطى أهي صلاة الظهر أم العصر أم غيرهما؟[٢٧]

والآية تؤكد على ذلك في الخوف كما تؤكد عليه في الأمن مع مراعاة المقام فيهما. وكل ذلك يكشف عن أهمية الصلاة وخطرها في الإسلام، وهو ما نتلمسه من هدف العدول في سياق الآيتين الكريمتين.

طبيعة العدول:

تتضح طبيعة العدول في مستويين:

١. المعنى:

مر بنا قبل قليل أن الآيتين الكريمتين المعدول بهما عن السياق تتحدثان عن المحافظة على الصلاة في وسط سياق طويل يتناول بعض شؤون المرأة والطلاق والرضاع.

٢. بناء الجملة:

تبدأ الآيتان الكريمتان بأسلوب الأمر في قوله تعالى:(حافظوا) وهو أسلوب إنشائي طلبي في حين تبدأ الآيات في السياق الطويل بأسلوب الخبر، وهو يسير بنفس هادئ تتكرر فيه عبارة (لاجناح) ثماني مرات مما يشيع جوا من الارتياح ورفع الحرج في التعاملات والأحكام المذكورة.

أما أسلوب الأمر في بداية آية المحافظة فيظهر منه التشديد في المحافظة على الصلوات والتأكيد في المحافظة على الصلاة الوسطى فلا يتخلف الأمر في أمن أو خوف. وبين الحزم في أسلوب الأمر وهدوء الأسلوب الخبري في السياقين تتضح طبيعة العدول في بناء الجملة.

الجامع بين السياقين:

هناك أمران يبدوان لي هما:

١. إن الآيات جميعا تتحدث عن أحكام شرعية، تفصل القول في بعضها وتجمله في بعضها الآخر، وهذا ما يراه سيد قطب في شيء من التفصيل بقوله:((وفي هذا الجو الذي يربط القلوب بالله، ويجعل الإحسان والمعروف في العشرة عبادة لله، يدس حديثا عن الصلاة – أكبر عبادات الإسلام– ولم ينتهِ بعد من هذه الأحكام ... فيوحي بأن الطاعة لله في كل هذا عبادة كعبادة الصلاة، ومن جنسها، وهو إيحاء لطيف من إيحاءات القرآن))[٢٨].

٢. إن تنظيم علاقة الرجل بالمرأة أمر مهم في الحفاظ على النوع الإنساني، وقد تحدث سبحانه في الآيات المباركة عن عدم مقاربة الرجل للمرأة في وقت الحيض وعن إباحة الأمر لهما في غير ذلك؛ لأن المرأة لباس الرجل، وما دامت هي كذلك فلا بد أن تنظم علاقته بها، وتنظم تبعا لذلك عملية الطلاق بما يليق بمكانتها فـ((إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ))، ولابد أن تنظم في إطار ذلك كله عملية الرضاع التي تقوم بها المرأة للأطفال، وكل ذلك يشير إلى المحافظة على النوع الإنساني بتنظيم العلاقات القائمة بين ركنيه الأساسيين الرجل والمرأة.

أما المحافظة على الصلوات فهي محافظة على الإسلام بوصف الصلاة عمود الدين كما جاء في الأحاديث الشريفة [٢٩]. ومن هنا يظهر أن الجامع بين السياقين هو أن مؤداهما يدعو إلى الحفاظ على القيم الأساسية عند الإنسان من خلال الحفاظ على النوع الإنساني بتنظيم علاقة الرجل مع المرأة، والحفاظ على الدين من خلال المحافظة على الصلوات.فضلا عن أن من يحافظ على الصلاة يكون أقرب من غيره إلى الالتزام بالأحكام الشرعية الأخرى التي من ضمنها الأحكام الواردة في السياق القرآني محل البحث.

– 3 –

وفي قوله تعالى:

((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)) [٣٠].

جاءت هذه الآية المباركة في سياق طويل يتناول أهل الكتاب وكفرهم وموبقاتهم، ومن يتخذهم أولياء من دون الله غير أننا سنأخذ السياق القريب من الآية؛ لوضوح الترابط فيما نحاوله من بيان العدول في السياق، والجامع بين السياقين.

الآية الكريمة تتناول وجوب تبليغ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ما أنزل إليه من ربه، والسياق القريب يتناول عدم اهتمام أهل الكتاب بإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، وأنهم ليسوا على شيء ما داموا بعيدين عن ذلك. ويبدو

واضحا أن آية التبليغ معدول بها عن سياق الآيات التي قبلها وبعدها، وهو سياق يمتد من الآية 65 إلى الآية 69.

سبب العدول:

يبدو في هذه الآية – كما هو الحال في غيرها من الآيات – أن سبب العدول هو لفت الانتباه إلى الآية المعدول بها؛ لما يتضمنه هذا العدول من أهمية تظهر بعد التدبر والتفكر.

هدف العدول:

يهدف العدول في سياق الآية المباركة إلى الاهتمام الكبير بشأن التبليغ الذي أمر الله – جل شأنه – رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) بإعلانه للناس؛ وهو أمر خطير يعادل عدم تبليغه عدم قبول تبليغ الرسالة بأجمعها، فلا بد من البحث عنه والوقوف عليه والتدبر فيه.

طبيعة العدول:

تتضح طبيعة العدول في مستويين:

١. المعنى:

يتضح مما سبق أن آية التبليغ توجه الخطاب إلى الرسول الكريم(ص)، وتأمره أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، في حين تتحدث الآيات الأخرى عن عدم اهتمام أهل الكتاب بكتبهم وبما أنزل إليهم من ربهم.

٢. بناء الجملة:

تبدأ آية التبليغ بالنداء وهو يدعو إلى انتباه المنادى وإقباله على المنادي، والنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) حاصل له هذا في حالاته مع الله – سبحانه –، ويتبع ذلك أسلوب الأمر بالفعل المضعف (بلّغ) الذي يدل على شدة الاهتمام به، ثم يتلوه أسلوب الشرط بـ(إنْ) الذي يدل على قوة تحقق الشرط بتحقق الفعل، وتنتهي الآية بالخبر المؤكد بـ(إنَّ). والآية بهذا البناء تختلف عن الآيات التي قبلها والتي بعدها في السياق المذكور آنفا.

أما الآيتان اللتان قبلها فتبدءان بالأداة (لو) وهي أداة شرط غير جازمة تدل على امتناع حصول الجزاء لامتناع حصول الشرط. ويبدو الفرق في السياق بينها وبين الأداة (إن)جليا واضحا.

أما الآيتان اللتان بعد آية التبليغ فتبدأ أولاهما بالأمر الذي يتلوه النداء، وهو عكس ما بدأت به آية التبليغ، وتبدأ الآية التي بعدها بأسلوب الخبر وتسير به إلى نهايتها.

وبناء على ما تقدم يظهر العدول في سياق آية التبليغ عما قبلها وما بعدها من الآيات واضحا.

الجامع بين السياقين:

يتضح للمتدبر في آية التبليغ أن ما أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بتبليغه شيء خطير بحيث يكون عدلا لتبليغ الرسالة بأجمعها، وهو أيضا أمر ثقيل على كثير من الناس الذين عصم الله رسوله الكريم منهم.

وتبين الآيتان اللتان قبلها أن أهل الكتاب حرموا من كثير من الخيرات بسبب علوهم على أوامر الله وعدم إقامتهم التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، وهنا تبدو أول مظاهر الاقتران بين السياقين بإفراد (ما أنزل إليهم من ربهم) عن التوراة والإنجيل، وهو ما يشعر بأن هذا الإنزال هو من سنخ الإنزال المذكور في آية التبليغ، وعندها تكون الآيتان منبهتين للمسلمين على أهمية إقامة الإنزال المذكور في آية التبليغ.

والآية التي بعدها تؤكد الأمر السابق حين لا تجعل لأهل الكتاب نصيبا من الإيمان حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، وهي تلمح إلى أن المسلمين سيكون لهم الجزاء نفسه إذا عاملوا الأمر الذي أنزل على الرسول معاملة أهل الكتاب لما أنزل إليهم من ربهم.

وهنا يتضح أن الجامع بين السياقين هو التنبيه إلى أهمية الأمر الذي أنزله الله على أنبيائه ووجوب إقامته، وأن التخلف عنه مدعاة إلى حرمان المتخلفين من فضل الله وخيره الوفير؛ ذاك أنَّ ((الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب ... فأولى به الذين أنزل إليهم القرآن ... الذين يقولون: إنهم مسلمون))[٣١].

– 4 –

وفي قوله تعالى:

((إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا))[٣٢].

النص القرآني المذكور هو جزء من الآية 33 من سورة الأحزاب، وهو يتحدث عن أهل البيت (عليهم السلام) في سياق من الآيات قبله وبعده يتحدث عن نساء النبي. وهناك خلاف بين المفسرين في المراد من أهل البيت وتشخيصهم بعلي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، أو تشخيصهم بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ونسائه(رضوان الله عليهن)، أو غير ذلك مما توسع به المفسرون[٣٣].

والذي يذهب إليه الباحث أن النص الشريف معدول به عن سياق الآيات قبله وبعده، وستتكفل الفقرات الآتية بيان ذلك.

سبب العدول:

لا يخرج سبب العدول في النص القرآني المذكور عن غيره من الآيات التي سبقته وهو التنبيه إلى أهمية النص المعدول به. غير أن العدول جاء في شطر آية وليس في آية كاملة أو أكثر كما مر بنا في الآيات السابقة.

هدف العدول:

لا ريب في أن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) هو أقدس إنسان عرفته البشرية، وهو سيد ولد آدم(عليه السلام)، وحفظه في أهل بيته بحبهم واحترامهم وتقديسهم يعكس صورة إيجابية يقدمها المسلمون دليلا على حبهم له، وتقديسهم إياه، وشكرهم لما أسداه لهم من الهداية والتربية والنصح.

والنص القرآني السابق يدعو إلى احترام أهل البيت (عليهم السلام) وتقديسهم من خلال إذهاب الله الرجس عنهم وتطهيرهم، ولأهمية هذا الأمر على حياة المسلمين ومستقبلهم جاء العدول في السياق القرآني السابق لبيان مكانتهم عند الله وعظيم اهتمامه بشأنهم.

طبيعة العدول:

تتضح طبيعة العدول في مستوين:

١. المعنى:

يظهر من السياق الذي سبق الآية وتلاها حث نساء النبي على اختيار الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها، والتنبيه إلى أنهن لَسْنَ كباقي النساء لمكان قربهن من الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبيان أن لهن أحكاما خاصة يترتب عليها جزاء خاص في القيامة، والسياق بعامته يقف بين الترغيب والترهيب.

أما النص المعدول به فيظهر فيه الحزم والإرادة القاطعة بتطهير أهل البيت وإذهاب الرجس عنهم، وهو غير السياق القائم على الترغيب والترهيب.

٢. بناء الجملة:

- يظهر النص المعدول به قويا في بنائه؛ إذ يبدأ بأداة الحصر (إنما)، ولا يتكرر البناء في موضع آخر من السياق، في حين بدأت الآيات التي سبقتها وتلتها بالنداء والشرط والأمر والنهي، ويتكرر ذلك في أكثر من آية.
- تعود الضمائر في النص المعدول به على جماعة الذكور باستعمال الضمير (كم)، في حين يسير السياق قبله وبعده باستعمال الضميرين (كن) العائد على جماعة النساء ونون النسوة مكررين في مواضع كثيرة من السياق.
- إن أسلوب النص المعدول به أسلوب خبري، في حين جاء السياق العام باستعمال أسلوب الإنشاء والفرق بينهما واضح.

إن هذا يبين لنا أن النص القرآني معدول به عن السياق العام للآيات قبله وبعده، وقد تجلى ذلك في مستويي المعنى وبناء الجملة معا.

الجامع بين السياقين:

إن السياق العام يتحدث عن نساء النبي، والسياق المعدول به يبين مكانة أهل بيت النبي، ونساؤه وأهل بيته شأن خاص به، وإن كانت أبعادهما تظهر على حياة المسلمين ومستقبلهم، فالمسوغ للجمع بين السياقين أنهما يتحدثان عن خصوصيات النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وأن المتحدث عنهم بالسياقين لهم شأن في الإسلام لا يدانيهم فيه أحد من المسلمين، والله سبحانه وتعالى هو العالم.

الخاتمة:

انتهى البحث إلى النتائج الآتية:

١. العدول في السياق القرآني ظاهرة تتكرر في آيات كثيرة اكتفى البحث بأربعة منها؛ لبيان الظاهرة وبحثها بشكل مفصل.

٢. جاء العدول في السياق القرآني ليبين أهمية المعنى المراد بيانه في السياق المعدول إليه.

٣. كانت طبيعة العدول تتحدد بمستويين هما: المعنى، وبناء الجملة.

٤. لم تتناول معظم التفاسير القديمة والحديثة سبب العدول في سياق الآيات محل البحث وأهدافه وطبيعته. وبهذا فقد يسجل البحث إضافة جديدة في هذا المضمار.

إن الآيات المعدول بها في السياق القرآني كثيرة لا يتسع هذا البحث لعرضها جميعا، وأليق بها أن يفرد لها كتاب يجمعها، ويؤكد تكرارها في السياق القرآني. والله أسأل أن يوفقني لتحيق ذلك إنه سميع مجيب.

Withdrawal in the Holy Quran

Abstract

The research deals with a phenomenon repeated in the Holy Quran. It came in many of its verses. It is a phenomenon that some of Verses of Quran change the topic out of their context unexpectedly, in a way that attracts the attention and arouse in the soul an inquiry about this sudden change and its aim. It calls for contemplation, speculation and careful examination to recognize its truth and reveal its signification. Such a change is what we call withdrawal.

The research has established the origin of the tern (withdrawal in the context) after it examined each of the two terms alone, explaining their linguistic dimensions and technical signification. It concluded that withdrawal is an unexpected change that renew semantic impetus when moving in the discourse from one origin to other, or it is an appearance of an unexpected element from

phrases and sentences within linguistic, rhetorical, and psychological network in one specific text frame.

الهوامش:

[١] الفراهيدي، الخليل بن أحمد: العين: مادة (عدل).

[٢] ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم: مادة (عدل).

[٣] ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة 817.

[٤] ابن منظور: لسان العرب: مادة (عدل).

[٥] ابن الأثير، ضياء الدين أبو الفتح: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر 193/2-194.

[٦] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة 476.

[٧] ابن منظور، لسان العرب: مادة (سوق).

[٨] الفراهيدي، العين: مادة (سوق).

[٩] ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: مادة (سوق)

[١٠] الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة: مادة(سوق).

[١١] الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز: 40.

[١٢] الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز: 40-41.

[١٣] الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة 413/3.

[١٤] ظ: صاحب أبو جناح، الدكتور: السياق في الفكر اللغوي عند العرب: مجلة الأقلام، العدد3-4،117.

[١٥] جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق242.

[١٦] م.ن. 62.

[١٧] ظ: صاحب أبو جناح، الدكتور: السياق في الفكر اللغوي عند العرب: مجلة الأقلام، العدد3-4، 117.

[١٨] ظ: محمد حسين علي الصغير، الدكتور: الصورة الفنية في المثل القرآني 35.

[١٩] ظ: ميكائيل ريفاتير: معايير تحليل الأسلوب 56.

[٢٠] م.ن. 56.

[٢١] م.ن. 56.

[٢٢] النحل 103.

[٢٣] البقرة 186.

[٢٤] ظ: الطبراني: المعجم الأوسط: 293/3، والسيوطي: الجامع الصغير: 654/1، الحر العاملي: تفصيل وسائل الشيعة: 27/7، محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار: 300/90.

[٢٥] سيد قطب: في ظلال القرآن: 174/2.

[٢٦] البقرة 238-239.

[٢٧] ظ: في تفصيل ذلك الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 750/2-767، والطوسي: التبيان في تفسير القرآن:275/2.

[٢٨] سيد قطب: في ظلال القرآن:257/2.

[٢٩] ظ: الطوسي: تهذيب الأحكام: 237/2، السيوطي: الجامع الصغير: 120/2.

[٣٠] المائدة 67.

[٣١] سيد قطب: في ظلال القرآن:935/6-936.

[٣٢] الأحزاب 34.

[٣٣] ظ: الطبري: جامع البيان: 8/22-13، والطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن:156/8-158.

ثبت المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير،ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الشيباني الجزري(ت 638هـ):المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق الدكتور بدوي طبانة والدكتور محمد الحوفي، مطابع الفرزدق التجارية، دار الرفاعي للنشر، الرياض 1983م.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471هـ):دلائل الإعجاز، صحح أصله الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشنقيطي،دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،د.ت.

- جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق،ترجمة: الدكتور عباس صادق الوهاب، مراجعة: الدكتور يوئيل عزيز،دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، بغداد 1987م.
- الحر العاملي،محمد بن الحسن (ت 1104هـ): تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة،تحقيق مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث، المطبعة مهر، الطبعة الثانية، قم 1414هـ.
- الزمخشري،جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت 538هـ): أساس البلاغة،دار صادر، بيروت1979م
- سيد قطب: في ظلال القرآن، مطابع الشروق، الطبعة الرابعة والثلاثون، بيروت 2004م.
- ابن سيده،أبو الحسن علي بن إسماعيل(ت 458هـ): المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار، القاهرة 1958م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ): الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، مطبعة دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت 1401هـ.
- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي(ت 790هـ) الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، دت.
- صاحب أبو جناح، الدكتور: السياق في الفكر اللغوي عند العرب، مجلة الأقلام، العدد 3-4،دار الشؤون الثقافية، بغداد 1992م.
- الطبراني،أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت 360هـ): المعجم الأوسط،تحقيق إبراهيم الحسيني وآخر، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت 560هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق لجنة من المحققين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت 1995م.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1995م.
- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت 460هـ):

– التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى 1409هـ.

–تهذيب الأحكام، تحقيق السيد حسن الخرسان، مطبعة خورشيد، الطبعة الرابعة 1365هـ ش.

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد (ت 395هـ): معجم مقاييس اللغة، اعتنى به محمد عوض مرعب وأخرى، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت 2001م.
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت 175هـ): كتاب العين، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي وآخر، مطابع كويتا تايمز، دار الرشيد للنشر، بغداد 1982م.
- المجلسي،محمد باقر بن محمد تقي (ت 1111هـ): بحار الأنوار، مطبعة مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية،بيروت 1983م.
- محمد حسين علي الصغير، الدكتور: الصورة الفنية في المثل القرآني– دراسة نقدية وبلاغية، الطبعة الثانية، دار الهادي، بيروت 1992م.
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأفريقي المصري (ت 711هـ): لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1985هـ.